فيا لله أكان يلزم كلّ هذا الصراخ والجدال للمدافعة عن هذه اللغة العاميّة ورفع شأنها وهي لا تخالف اللغة الفصيحة إلّا ببعض ما يفسدهُ لسان العامّة. أما كان احرى بالابمارون ان يقول لهم: «انّ اللغة الفصيحة اقرب اليكم من قاب قوسين والدليل انكم لا تجدون فرقاً كبيراً بين الروايتين المذكورتين سواء عُرضت عليكم باللغة الدارجة او باللغة الفصيحة. وهاكم تسمعون كلّ يوم في الكنيسة قراءة الانجيل باللغة الفصيحة ولا احد منكم يطلب ان يُقرأ باللغة العامية وتتلون كل صلواتكم باللغة الفصيحة ولم يخطر على بالكم استبدالها باللغة الدارجة واذا وجّه اليكم رؤساؤكم الاجلّاء مناشيرهم كتبوها باللغة الفصيحة وكلكم يدرك معانيها. وكم تقرأون من الكتب الفصيحة كألف ليلة وليلة وقصّة عنتر فتفهمونها دون صعوبة وكذلك الجرائد لا تفوتكم اخبارُها وكلها فصيحة. امّا الكتب اللغويّة العويصة كالحريري والشعر القديم والكتابات المتصنعة فهذه لم تُكتب إلّا للمتبحّرين في اللغة فلاحاجة لكم اليها. فاثبتوا على لهجتكم في المعاملات وإيّاكم ان تتعرّضوا لمن يكتب او يتكلّم باللغة الفصيحة فلا بأس بعملهِ فانهُ يستفيد ويفيدكم». فلو عرض حضرتهُ المسألة على هذا المنوال لوَفى الغرَض ولم يستهدف لانتقاد احد من الادباء فجار عن الطريق وتعدّى الخطة المثلى فصوّب اليهِ المنتقدون سهامهم فأصابت المرمى

ردود

حضرة الخوري مارون غصن

على البشير والمشرق

قد ظهرت في هذه الأيّام الاخيرة لحضرة الخوري مارون غصن في الإقبال اوّلًا باسم المسمّى اسعد نخله (؟) ثم باسمه صريحاً في الاحوال ردودٌ على ما كتبتهُ جريدة البشير في وصف كتابهِ المعنون بدرس ومطالعة وما نشرتهُ مجلّة المشرق تحت عنوان «خطر جسيم او اللغة العاميّة» فاطّلعنا عليها واذا فيها من التسيبات والتُّهم التي

أدهشتنا وادهشت كل من قرأها . فرانا مضطرين صوناً لحرمة الحقيقة ان نعلن هنا تفاصيل هذه المسألة الغريبة

يعلم الكل انَّ حضرة الخوري مارون غصن احد اساتذة مدرستنا الكلّيّة منذ السنين السابقة للحرب وكنّا في كل هذه المدّة نجلّهُ ونثني على همّتهِ في تدريس اللغة العربيَّة وكثيرًا ما نشرنا لهُ في جريدة البشير وفي مجلّة المشرق وفي رسالة قلب يسوع مقاطيع شعريّة ونثريّة كان القرّاء يقبلون على مطالعتها بكل شوق . وبياناً لرضى المدرسة عن خدماتهِ سعى حضرة الاب شانتور رئيس كليّتنا لدى الحكومة الفرنسويَّة فنال لهُ من فضلها وسام اكاديمية المعارف الفرنسويَّة وعُقدت لهُ وقتئذٍ حفلة شائقة في محفل الكليَّة وهي التي وصفناها في المشرق في العام الماضي (٢٢[١٩٢٤]: ٣٩٠–٤٧) بكلام مسهب . وحضرة الخوري هناك (٤٤–٤٧) خطبةٌ جميلة شهد فيها لنفسهِ خدمتهُ للغة العربيَّة الفصيحة واثنى اعطر الثناء على ما لكليَّة القديس يوسف وآبائها من الايادي البيض في تعزيز تلك اللغة

وقد ثبت حضرتهُ على هذه الخطَّة الى اوائل السنة المدرسيَّة الحالّة واذا به [illegible] يدفع العامَّة لاستعمالها فقط بل ليقيمها مقام اللغة الفصيحة مدَّعياً ان هذه اللغة الفصيحة آئلة الى الفناء وانَّ اللغة العاميَّة ستقوم بدلًا منها ومن ثمَّ يجب السعي في تعزيزها ريثما تبلغ غايتها الشريفة من قتل اللغة الفصيحة . واخذ ينشر هذا الفكر بين اصحابهِ ومعارفهِ فبلغنا فكرهُ فلم نكن لنعيرهُ بالًا بل عددناهُ من اضغاث الاحلام التي تعرض احياناً لبعض الكتبة فسكتنا عنهُ

ولمَّا كان الشهر كانون الاوَّل من العام الماضي فكَّر حضرة استاذنا في نشر ما لهُ من المقالات المختلفة في مجلة المشرق وجريدة البشير ورسالة قلب يسوع ليجعلها كتاباً مستقلًا تحت عنوان « درس ومطالعة » وذلك على حسابهِ فعرض الامر على مدير مطبعتنا الذي اجاب الى طلبهِ على شرط ان لا ينشر في كتابهِ الَّا ما ورد في المنشورات السابقة التي راقبها مراقبو مطبوعاتنا دون العثمانيَّات والجاليات والارمنيَّات والدرزيليَّات فأكَّد لهُ الامر وسلَّم مسوَّداتهِ للطبع

فلمَّا بلغ الى ثلثي الكتاب دسَّ فيهِ مقالةً راسمة دون ان يُطلع عليها مراقبي

المطبوعات فأعطاها للصفاف فضنها وهو لا يدري من امرها شيئاً ثم مثلت للطبع. فطبع منها جانب كبير واذا باحدنا وقف على ورقة منها فاخذهُ العجب من نشرها واعلم بذلك رؤساءنا فآخذوا حضرتهُ على فعلهِ وطالبوا اليهِ ان يُأمنها ويعوّضوا لهُ عن الخسارة الماليَّة فلم يرضَ ولم يزل يلحّ ويدافع عن رأيهِ قائلاً بانَّ هذا بحثٌ علميّ لا بأس منهُ حتى تركوهُ وشأنهُ بعد ان حذّروهُ من ردود آبائنا عليهِ فقال: انا لا اخاف احدًا وسيفوز رأيي عاجلًا او آجلًا

ومن انشائهِ هذا العامّي بعض صفحات ملحقة برسالة قلب يسوع في عددها كانون الثاني استاء لها كلُّ من قرأها حتى قارئيها من العامّة فلم يُسمَح بنشر مثلها في عدد آخر

فلمَّا ظهر كتابهُ «درس ومطالعة» وعرضهُ على جريدة البشير للانتقاد مدح مديرها ما فيهِ من المقاطيع الفصيحة ولم يستحسن لهُ ما كتبهُ فيهِ في تعزيز اللغة العاميَّة وسيادتها على اللغة الفصيحة

وممَّا أذهلنا وأذهل كل اساتذة كليَّتنا قولهُ في مقدّمتهِ (حتى قبل ظهور الكتاب): «وحسبهُ فألًا بالرواج انهُ ما أنجز طبعهُ حتى اهّلت بهِ ادارة الدروس العربيَّة في كليَّة القديس يوسف» فجعل زورًا بقولهِ هذا كليَّتنا ضمنةً لاقوالهِ ومؤيدة لرأيهِ الفاسد في اللغة العاميَّة

واطّلع حضرة الاب انطون صالحاني على تلك المقالة المستغربة حتى قبل صدور الكتاب فأسرع الى تفنيدها في مقالة واسعة نشرتها في المشرق. فقامت قيامة الاب غصن لهذه الانتقادات التي سبقنا وانذرناهُ بها فحاول الردّ عليها في الجريدة الاسلاميَّة الاقبال وكان ارسل ذلك الردّ بواسطة احد الغرباء وامضاها باسم المدعوّ «اسعد نخله». ثمَّ دبّج بقلمهِ والتصريح عن اسمهِ الكريم عدَّة مقالات نشرتها جريدة الاحوال وصدى الاحوال وفيها ما فيها

ومن الطاف الكاتب في تلك الردود ما كنَّا نودّ ان لا يُشان بهِ قلم حضرة الخوري غصن: فهو يذهب هناك الى البشير التنطّس والتفطريس اذ «يريد ان يعلو صوتهُ اصوات جميع الجرائد حتى في هذه المسألة العلميَّة» وان «يكون حكمهُ في هذه القضيَّة العلميَّة الاجتماعيَّة فوق احكام علماء البلاد وحكامها» ولهذا يمنع الناس

عن البلوغ «الى تحقيق امر فيهِ خير ونجاح»

وألطف من ذلك ما وجَّههُ من الملام والتقريع لحضرة الاب انطون صالحاني فتارةً يقول عن مقالتهِ التي وقعت اطيب موقع لدى كل المطلعين عليها أنها «محشوَّةٌ من المغالطات» وانهُ لم «يدرك أنهُ أساء بقضيَّته شعباً كاملاً يستميت في سبيل الذَّود عنها» وتارةً يقول لصاحبها انهُ «قد تسرَّع في الحكم» وانهُ «خبط خبط عشواء» وان «جوابهُ غلط في غلط» وانهُ «ضالّ ومُضِلّ» وانهُ «لم يقرأ مقالتهُ» وانهُ اشتهر بكتابتهِ «كما اشتهر جحا بكسر مزراب العين» (كذا) واقوال كثيرة من هذا الطرز الظريف

ولم يحرم حضرتهُ ضعفنا من تلك الالطاف فاراد ان يصوِّرنا لقرَّاء الاقبال والاحوال كاعداء العلم والوطن بل نسبنا الى التناقض في الحكم لمديحنا لبعض المطبوعات في اللغة العامية كأنَّ مديحنا هذا يمسُّ شرف اللغة الفصيحة او كأننا حاولنا بذلك ذكّ اركانها. ومن العجب العجاب انهُ ينسب الينا ما كتبهُ حضرة الاب صالحاني كأنهُ يحتاج الى قلمنا في كتاباتهِ المشعَّة

على اننا نذكر لحضرتهِ اقراره بأننا لم نوافقهُ على رأيهِ في ما يخصّ تعزيز اللغة العامية لتسويدها على اللغة الفصيحة او بدلاً منها [illegible] دفعهُ الى هذه الفكرة الباطلة بل بيان صريحاً بأننا استقرينا كتبهُ الجهد لنتبعهُ عن العدول عن رأيهِ. وفي قولهِ ما يدلُّ على ان الكل الناطقين بالضاد اذنا لا ثقة لنا في هذا الرأي ولاجل وانهُ هو وحدهُ المسئول عنهُ

فلننتظر الآن ما اتانا بهِ في هذه المقالات من البراهين اللامعة القاطعة لعلَّهُ يثبت لنا ما لم نقتنع بهِ سابقاً. وادلُّ دليل يلتجئ اليهِ هو ان كلَّ الجرائد والعلماء استحسنوا رأيهُ. فيكفينا جواباً على هذا البرهان الساطع ان نذكرهُ بما كتبهُ جناب محرِّر الوطن حيث يقول لهُ انَّ مديح الجرائد لا يعوَّل عليهِ في وصف ما يُرسل اليها من المطبوعات فقال لا فُضَّ فوه :

« انَّ بعض الصحف السيَّارة وقد يكون الوطن من جملتها كتبت في اخبارها المحليَّة عن كتابهِ ورجاً مرَّ في ما كتبتهُ بعض كلمات الاستحسان لذلك الاقتراح. غير انَّ هذا لا يعني سوى اعلان نشرتهُ الصحف على علَّاتهِ في باب لا يهتمّ صاحب الجريدة ومديرها لتمحيصهِ بل يترك انشاءهُ لتجربة من اعوانه الذين يحرِّرون الاخبار»

ثمَّ قال عن قضيَّة تعزيز اللغة العاميَّة ما قضى بهِ على ذلك المدَّعي الغريب :

« دعا حضرة الخوري مارون غصن بمقالتهِ الى اتخاذ اللغة العربيَّة العاميَّة وسطةً للانشاء وذلك بتحويل العناية اليها والعمل على احيائها وفضلها . وهي دعوة مستغربة لم تكن على الرغم من اعتقادنا بحسن نيَّة صاحبها تنتظرها من ناطق بالضاد . والغريب منها ان يقول الاب غصن انَّ ذوي الصحافة وكبار علماء اللغة يؤيدون رأيهُ على ما فيهِ من غضاضة بشأن اللغة الفصحى . وكنَّا لمَّا وقفنا على اقتراح الاب مارون خيَّلنا لتقويض اركانهِ

ثمَّ جئنا عمل الاب صالحاني بردّهِ على فكرة الاب غصن . فماذا يبقى لحضرتهِ من ادّعائهِ باستحسان كلّ الجرائد لكتابتهِ . ولا بُدَّ ان تقوم جرائد أخرى غير الوطن وتضرب على وتَرهِ . فيفهم وقتئذٍ حضرتهُ من هو « الخابط خبط العشواء »

هذا في امر الجرائد . بقي كبار المفكرين والعلماء اللغويين ولم يذكر حضرتهُ غير الاستاذ اللغوي الشهير الشيخ عبدالله البستاني ونسلّم معهُ انَّهُ « حجَّة العربيَّة في عصرنا » ولكن ما قابلهُ احد اساتذة كليَّتنا وطالب منهُ أهو من رأي الاب غصن حتى تنشر مقتاطاً لاعلانهِ باسمهِ بين انصار اللغة العاميَّة وهو منذ اربعين سنة يخدم اللغة الفصيحة وانَّما قال للخوري كلمة مجاملة اتَّخذها هذا كحجَّة . .

ولا نظنّ انَّ ما قالهُ غبطة السيد البطريرك لحضرتهِ في هذا المعنى يتجاوز ايضاً المجاملة ولاسيما اننا نرى غبطتهُ منذ خمسين سنةً لم يكتب سطرًا واحدًا لشعبهِ باللغة العاميَّة بل كثيرًا ما سمعناهُ يخطب في النادي البطريركي لجماهير الزوَّار بلغة ساذجة لكنها فصيحة . وعلى كل حال لن نقتنع منهُ حتى يأتينا بكتابة صريحة من غبطتهِ او من كبار العلماء يؤيدون رأيهُ وقد رأيناهُ غير مرَّة مخدوعاً ببعض التقاريظ التي يسمعها من اصحابهِ فيظنها حججاً لهُ

ومن براهينهِ الواهية ذكره اللغات الاوربيَّة المشتقة من اللاتينيَّة ومن غيرها فاراد ان يقيس العربية بها وشتَّان بين خمر وخلّ فانَّ اللاتينيَّة ماتت كلغة الشعب بموت الدولة الرومانيَّة وبقيت كلغة الكنيسة والعلماء . امَّا الشعب فكانت اللغات على لسانهِ تتكيَّف بكيفيَّات مختلفة حسب الامكنة والازمنة والعناصر ولم تكن اللاتينية لغتهُ الاصلية وانَّما كانت لغات أخرى كالسلتيَّة والسكسونيَّة والجرمانيَّة الهندية امتزجت بلغة الرومان فلم تثبت تلك اللهجات الابتدائي الزمان وبنبوغ الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب . وساعد الشعوبَ في ذلك انفرادُهم في اصقاع متنائية ودولٍ مستقلة . فاين كل ذلك من احوالنا وتباين شؤوننا !

وقد عرف بما لا يعرف اذ قال: انَّ ديكَرْت وكلوينوس والقديس فرنسيس دي سال اول من وضعوا كتباً افرنسيَّة بالنثر الادبيّ. فانَّ آثار اللغة الفرنسيَّة لا تُحصى منذ القرن الثاني عشر فانَّ ما طُبع منها الى اليوم يبلغ مكتبة واسعة في التاريخ والسير والآداب والروايات النثريَّة والشعريَّة وكفى بذكر البعض منهم كفيلهَرْدوان (Villehardouin) وبنوا دي سانت مور (Benoit de Sainte More) ومـاتيو دي فندوم (Matthieu de Vendôme) والسير دي جوانفيل (Sire de Joinville) صاحب ترجمة القديس لويس ملك فرنسة وغليلموس الصوري مؤلف تاريخ الصليبيين. وان كان كبار العلماء يفضّلون الكتابة باللاتينية فلأن كتاباتهم كانت موجّهة الى العلماء الذين كانت تجمعهم اللغة اللاتينية والشائعة بين كل الدول. ولمّا ارادوا ان يُطلعوا عليها العامّة اخذوا يكتبون ايضاً فيها المواضيع العلمية في الفلسفة واللاهوت والفلكيّات

وعلى كل حال ليس من شبه بين اللغات المشتقّة من اللاتينيَّة التي كما قلنا كانت لغة ميتة وبين اللغة العربية الفصيحة التي هي لغة حيَّة منذ اربعة عشر قرناً لم تحط اللغات العالمية الكثيرة من قدرها مع شيوعها. ولو امكنها ان تنزلها عن مرتبتها لَحطت لما كانت اللغات العاميَّة سائدة بين الشعب لا تراجعها المدارس والمطابع والادباء بتآليفهم ومنشوراتهم العلميَّة والسيارة فكيف تقوم الآن اللغة العاميَّة وتترقى الى أن تفوز بالسيادة على اللغة الفصيحة

وآخر ما نقوله لحضرة الخوري مارون انَّهُ من العجب ان ينتصر للغة العاميَّة ويعظّم شؤونها وهو يكتب باللغة الفصيحة أفليس يشبه بفعله هذا اولئك الذين يحاولون الكتابة في ترييف المنطق ولا يمكنهم ان يقتنعوا برأيهم الّا بقواعد المنطق؟ وليذكر المثل اللاتيني المدارج بان الكلام يطير والمثل يجذب (verba volant exempla trahunt)

فهذا ما خطر على بالنا ردًّا على حضرة الخوري مارون غصن ونردّ بالختام لو يروي عن خطَّة لن تجديَهُ نفعاً ما لم يُرد ان يهيّج الرأي العام ويستهدف لا نتقاد كل الادباء والكتبة